تاريخ الإرسال: 2014/04/24 - تاريخ القبول للنشر: 3014/04/30 تاريخ النشر: 2014/07/06

نماذج من انتفاضات قبائل الجهة الجنوبية للجلفة من خلال الكتابات و التقارير الفرنسية

أ.سنوسي نايبي. جامعة الجزائر2

أ.سويسي محمد الصغير. جامعة الجزائر2

مقدمة :

لم تكن قبائل جنوب الجلفة بمنأى عن الأحداث التي تعيشها الجزائر في هذه الفترة بل كانت مساهمتها فيها ظاهرة و بشكل فعال. و يتجلى ذلك من خلال دورها في مقاومة الأمير عبد القادر الذي زار المنطقة سنة 1837 بهدف الحصول على تأييد قبائل هذه الجهة و هو ما تم له بالفعل. و تجسد في مشاركة أبناء قبائل هذه الجهات مع جند الأمير في حصار عين ماضي سنة 1838 و في كل المعارك التي خاضها الأمير ضد الاستعمار بالمنطقة بل و حتى خارجها، حيث شارك فرسان منطقة أولاد نايل إلى جانب الأمير في معارك بوغني و يسّر بمنطقة القبائل الكبرى في بداية 1846.

إضافة إلى مساهمة قبائل هذه المنطقة في انتفاضات موسى الدرقاوي و التلي بلكحل و بومعزة و الأغواط و الزعاطشة و غيرها.

و لم تكتف قبائل الجهات الجنوبية للجلفة بالمساهمة في المقاومات و الانتفاضات الشعبية، بل عمل البعض منها على التصدي للاحتلال من خلال القيام بانتفاضات تلقائية محلية لعل من أبرزها انتفاضة أولاد سعد بن سالم و أولاد طعبة و انتفاضة أولاد أم لخوة.

1 – انتفاضة أولاد سعد بن سالم و أولاد طعبة* :

يعود أصل سعد بن سالم إلى مليك بن نايل ،و لسعد بن سالم هذا ثلاثة إخوة: عامر(يتوزع نسله بزاغز الشرقي حتى بوسعادة) وأمحمد (يوجد أبناؤه في شمال و شمال شرق و شمال غرب الجلفة و يشمل قبائل كثيرة) و يحيى الذي توجد ذريته في أقصى الغرب والجنوب الغربي على حدود الأغواط ،أما سعد فتوجد القبائل المنتمية إليه في المناطق الممتدة من الشارف وزنينة شمالاً إلى سيدي مخلوف وحدود عرش يحيى بن سالم غرباً و إلى ما وراء وادي جدي جنوباً حتى ما وراء المجبارة شرقاً وفي مسعد** تتلاقى حدود أولاد سعد بن سالم بحدود أولاد عيسى فمسعد هذه بلدة جامعة.

و الظاهر أن أراضي أولاد سعد بن سالم واسعة جداً و لها حدود مع كثير من القبائل التي كانت تربطها بهم علاقات وطيدة رغم ما قد يشوبها من توتر و نزاعات من وقت لآخر. لكن مع بداية ظهور التوغل الفرنسي في المنطقة صارت هذه القبائل موحدة ضد العدو المشترك .

و زيادة على علاقات الجوار و المصاهرة و المصير المشترك التي تربط قبيلة أولاد سعد بن سالم بجيرانها ،هناك عامل آخر قوي يربط قبائل الأغواط بأولاد نايل عموماً و سكان مسعد و ضواحيها و زنينة والشارف على وجه الخصوص ألا و هو انتماء معظمهم إلى الطريقة الشاذلية الدرقاوية التي نشرها بينهم الشهيد موسى الدرقاوي عندما أقام و علّم و درّس في الأغواط و مسعد و في الخضراء بين زنينة و الشارف .

وفي كل هذه المناطق كان له أتباع و مريدين لهم نفس الخلفية الدينية في طابعها الصوفي الصرف أو ما يعرف بالإخوان. فكل منتسبي الطريقة أخوة مهما كان انتمائهم أو جهتهم، و ضوابط الطريقة هي التي تحدد العلاقات. فكل ما يتعرض له بني الأغواط هو بالضرورة يستهدف كل الدرقاوة أينما كانوا.

---

* قبيلة من قبائل أولاد سعد بن سالم تتواجد بنواحي مسعد واد جدي كربطيط زكار،أنظر: أكاردو. ف: معجم قبائل و دواوير الجزائر، دار المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر، د ت ط، طبعة خاصة، 2013. ص 166.

** مدينة قديمة تقع على بعد 75 كلم جنوب الجلفة تعتبر إحدى الحواضر الكبرى لأولاد نايل.

هذا من جهة ، و من جهة أخرى فإن لهذه القبيلة علاقة عداوة مع الفرنسيين عموماً و مع الجنرال يوسف و جنده بالخصوص منذ أيام الأمير عبد القادر، فيوسف السفاح هذا هو الذي غزى زكار في أفريل 1846 أثناء مطاردته للأمير الذي مكث بهذا القصر لمدة قصيرة، فقام السفاح بالسيطرة على زكار وهدم منازلها[1] و اضطهد سكانها و عاقبهم بشدة و فرض عليهم ضرائب كبيرة عقاباً لهم على استقبالهم للأمير عبد القادر ومساندتهم له .

وقصر زكار هذا الذي يتوسط الجبال الواقعة شمال مسعد وجنوب الجلفة تقطنه قبيلة بني مايدة و قبيلة أولاد طعبة المنتسبتان إلى أولاد سعد بن سالم. و لم يكتف الجنرال يوسف بعقاب سكان زكار،بل قام كذلك بغزو مضارب قبيلة أولاد سعد بن سالم التي تعرضت للغزو في يوم واحد ثلاث مرات[2] لأنهم استقبلوا الأمير و ساندوه و وقفوا إلى جانبه و أمدوه بالسلاح والمال و الرجال بل و تستروا عليه و أنكروا معرفتهم بمكان وجوده. كما كان بعض فرسانهم من عناصر الجهاز الأمني المكلف بحراسة الأمير بقيادة التلي بلكحل.

و كان انتقام السفاح يوسف من أولاد سعد بن سالم شديداً فبعد أن سلط عليهم كل أنواع العذاب الممكنة[3] و فرض عليهم ضرائب و عقوبات قاسية و صارمة جداً و صادر مواشيهم و ممتلكاتهم بهدف إفقارهم ، فهذه القبائل حسب التقارير الفرنسية تتمرد كلما توفرت لديها ضروريات الحياة. و لهذا كانت السياسة الاستعمارية المعتمدة معها في هذا الوقت تقوم على تجريد هذه القبائل من أغلب ممتلكاتها حتى تبقى تابعة دائماً للسيطرة الاستعمارية و في حاجة ماسة لمساعدة فرنسا بهدف ترويضها وإرغامها على الاستسلام .

و لم تردع هذه العقوبات أولاد سعد بن سالم و لم تمنعهم من الالتحاق بتمرد التلي بلكحل في أكتوبر 1849 إلى جانب كل من أولاد سي أحمد و أولاد أم هاني و الذي كان شبيهاً بتمرد الزيان (الزعاطشة) ومتزامناً معه[4] ،و يظهر أن هذا التمرد جاء تعاطفاً مع

1- ARNAUD: RA. V:06 n° 34, Juillet 1863 p. 257.
2- ARNAUD: RA. V:17 n° 101, 1873 p. 377.

3 - ARNAUD. op-cit. p. 377.

4 - François de Villaret: Siècles de steppes, édition centre de documentation saharienne, Ghardaïa 1995. P:129

إخـــوانهم في الشـــرق الـــذين كـــانوا يخوضـــون معـــارك كبـــيرة في الزعاطشـــة و بوســـعادة ،و كـــرد فعـــل علـــى ذلـــك قـــام المـــلازم أول قريقـــوار والـــلازم كـــاريو بحملـــة علـــى الزعفـــران بزاغـــز الغـــربي حيـــث قـــاموا بغـــزو مضـــارب القبائـــل الســـابقة و مـــن بينهـــا أولاد ســـعد بـــن ســـالم و قـــد فقـــدت هـــذه القبائـــل في هـــذه الحملـــة الكثـــير مـــن أبنائهـــا و تمـــت مصـــادرة كـــل مـــا وقـــع مـــن مواشـــيها تحـــت أيـــدي قـــوات الاحتلال .

و كـــل هـــذه الإجـــراءات لم تـــزد قبيلـــة أولاد ســـعد بـــن ســـالم إلا إصـــراراً علـــى الاســـتمرار في المقاومـــة، فبمجـــرد منـــع قـــوات الاحـــتلال لقبيلـــة أولاد ســـعد بـــن ســـالم مـــن التنقـــل إلى الشـــمال و منـــع قوافلهـــا كـــذلك مـــن المـــرور إلى التـــل الـــذي يمثـــل المصـــدر الأساســـي لتمويـــل القبائـــل الصـــحراوية بـــالحبوب في إطـــار رحلـــة بدايـــة الصـــيف كمـــا ســـبقت الإشـــارة، و كـــرد فعـــل علـــى هـــذا الإجـــراء تجـــدّد تمـــرد هـــذه القبيلـــة في ســـبتمبر 1851 و دخلـــت في اشـــتباكات و معـــارك كثـــيرة مـــع قـــوات الاحتلال.

و في أكتـــوبر 1852 بـــدأت تظهـــر بعـــض التحركـــات المريبـــة لقبيلـــة أولاد ســـعد بـــن ســـالم و بـــالأخص قبيلـــة أولاد طعبـــة الصـــغيرة الـــتي لم يكـــن عـــدد أفرادهـــا يتجـــاوز 1558 شـــخص ســـنة 1878[5] و رغـــم ذلـــك كانـــت أكثـــر قبائـــل الجهـــة الجنوبيـــة الغربيـــة مـــن كونفديراليـــة أولاد نايل تمرداً.

و الظـــاهر أنّ الـــبعض مـــن أفـــراد هـــذه القبيلـــة هـــم أول مـــن قـــام ببنـــاء المســـاكن فيمـــا يعـــرف بالمجبـــارة اليـــوم و ذلـــك في حـــدود 1770-1780، حيـــث يـــذكر أرنـــو أنّ رجـــلا مـــن أولاد طعبـــة قـــام مـــع أولاده و يـــدعى أحـــدهم الـــرانبي رفقـــة بعـــض الأفـــراد مـــن نفـــس القبيلـــة ببنـــاء أول مســـكن علـــى بعـــد حـــوالي 2 كلـــم غـــرب العـــين المســـماة المجبـــارة و كـــان ذلـــك في نفـــس فـــترة بنـــاء مســـعد (منذ حوالي 80 سنة)[6].

و لمـــا أحســـت فرنســـا بـــالخطر في هـــذه المنطقـــة القريبـــة مـــن الأغـــواط و بالتحركـــات المريبـــة لهـــذه القبيلـــة الـــتي كانـــت تســـتعد للحـــاق بالشـــريف محمـــد بـــن عبـــد الله[7] ، تحـــرك الجنـــرال يوســـف علـــى رأس طـــابور مـــن الفرســـان فوصـــل مســـعد أيـــن اكتشـــف مخزنـــاً للمؤونـــة تابعـــاً للشـــريف محمـــد بـــن

5 – أكاردو. ف: المصدر السابق، ص 166.

6 - ARNAUD: RA. V: 06. N° 34, (Juillet 1863) P. 255.

7 – François De Villaret: op.cit. P 123.

عبد الله و قام بحجز مدخراته[8] ، و منها تنقل 13 أكتوبر 1852 نحو منطقة جبل كربيطط أين كانت تتوزع خيم قبيلة أولاد طعبة التي دخل فرسانها في مناوشات مع جنود الجنرال. و الظاهر أن إصرار مجاهدي هذه القبيلة على مواصلة المقاومة من جهة و تركيز الجنرال يوسف على معركة الأغواط من جهة أخرى جعله يتراجع عن الاستمرار في هذه الحملة و يؤجل عقاب أولاد طعبة إلى ما بعد ما ستسفر عنه تطورات الوضع في الأغواط.

و في مقاومة الأغواط ساهم أولاد سعد بن سالم بما فيهم أولاد طعبة على غرار إخوانهم من أولاد نايل في هذه المقاومة و ضحوا بالكثير من أبنائهم و كانوا أول قبيلة تتعرض للعقاب بعد سقوط الأغواط مباشرة ، حيث أعطى الجنرال يوسف تعليماته الصارمة و المحددة للكلونيل PEIN الذي تنقل و جنوده من بوسعادة للمشاركة في احتلال الأغواط .

و ذكره الجنرال بأنه توجد في طريق عودته قبيلة صغيرة متمردة لا تريد الوصول إلى اتفاق[9] و يجب ردعها و ذكره بأن وحدته كافية لمهاجمة هذه القبيلة رغم صعوبة تضاريس جبل كربيطط الصغير. و كان من بين الأمور التي نبه إليها الجنرال يوسف ضابطه هو انعدام الماء في هذه المناطق و لذلك زوده بـ 400 قربة* إضافة إلى ما كان بحوزة طابوره من براميل معدة لهذا الغرض. و هذا العدد الكبير من معدات نقل الماء يبين كثرة عدد الجنود المكلفين بهذه المهمة ، و رغم أن المعلومات المتوفرة تحدد عدد جنود طابور بوسعادة في سرايا الفيلق الثالث في إفريقيا (300 جندي) و الفرسان النظاميون (150 فارس) إضافة إلى قناصة الأهالي من قسنطينة و الذين يقدر عددهم (200 قناص)[10] و المجموع 650 جندي. و هذا العدد لا يبدو منطقياً بالنظر إلى كمية الماء المحمولة مع الطابور من جهة و لقصر المسافة الرابطة بين الأغواط و أقرب أول نقطة ماء (مسعد) من جهة أخرى، و هو ما لا يدع مجالاً للشك بأن عدد جنود الطابور الذي هاجم قبيلة أولاد طعبة أكثر من العدد

8 – Ibid. P:122.

9 – PEIN .T.H : Lettres familières sur l'Algérie, un petit royaume arabe, T. Martin, Imprimeur-Libraire, éditeur, Paris 1871. P:381.

* القربة : هي وعاء جلدي يستعمل بعد دبغه لنقل الماء و هي تسع على الأقل 20 لتر.

10 –Mangin E.: Notes sur l'histoire de Laghouat. (Ed. Adholph Jordan, Libraire, éditeur, Alger 1895). P 77.

المذكور. و نصح الجنرال يوسف الضابط بان PEIN أن يهاجم أولاد طعبية من جنوب كربطيط لمحاصرتهم حتى لا يفروا جنوباً.

لكن الكولونيل بان كانت له إستراتيجية مختلفة و هي التي اعتُمِدَتْ في الأخير بعد مناقشته مع الجنرال و تقوم خطته على التمويه، حيث يسلك الطابور طريقه العادية: الأغواط، مسعد دمد، بوسعادة و من دمد يعود في حركة مفاجِئة نحو كربطيط محل إقامة أولاد طعبة بعد أن يكون قد موّههم و جعلهم يعتقدون أن طابوره قد واصل الطريق في اتجاه بوسعادة حتى لا يترك لهم الفرصة للاستعداد أو الفرار. و قد أعطى الجنرال حرية التصرف لضابطه في الأخير[11].

في 13 ديسمبر* تحرك الطابور من الأغواط متجهاً إلى مسعد ، و قد قام بان بإرسال مجموعة من المستكشفين والعيون لمعاينة المنطقة و تحديد مراكز تجمع خيم أولاد طعبة و عددهم بالتقريب ،و قد زوّد هؤلاء الكلونيل بتفاصيل دقيقة حول الجبل و تضاريسه و مسالكه بل و مناطق تركز خيم هذه القبيلة بالتحديد. و من دمد التي ارتاح بها الطابور عاد جيش الكلونيل بان متسللاً سالكاً الطريق بين الجبال و تمكن من الالتفاف جنوب كربطيط دون أن يثير الانتباه حتى صارت قواته موزعة في مواقعها المحددة حسب الخطة، حيث توجه الفرسان إلى الجهة الغربية من الجبل و تمكن النقباء بيلوتي PELETIER و ديقار DIGARD و جنودهما من القناصة و السبايس من تسلق الجبل رغم صعوبة تضاريسه و وعورة مسالكه ،أما العقيد بيتي BUTET فكان على رأس المدفعية[12] التي أُستعملت بشكل كبير و ركزت على المواقع الكبرى لتجمع الخيم. و باستمرار القصف صار الدخان يغطي كل المنطقة و ضواحيها.

كانت الحملة مفاجِئة على قبيلة أولاد طعبة و رغم المقاومة القوية التي أبداها مقاتلي القبيلة بإمكانياتهم القليلة و المحدودة إلا أن القوات الفرنسية الأكثر عدداً و تنظيماً و تسليحاً تمكنت من التغلب عليهم في الأخير و هو ما أجبر ما تبقى من أفراد هذه القبيلة

11 - PEIN .T.H : op.cit. P 382 .

* يذكر مونجان أن هجوم طابور بوسعادة على أولاد طعبة كان في 13 نوفمبر1852 و هذا غير منطقي لكون الهجوم كان بعد سقوط الأغواط الذي تم في 04 ديسمبر 1852ويظهر أن مونجان اختلط عليه الأمر بين حملة بان وحملة الجنرال يوسف على هذه القبيلة في اكتوبر 1852 أنظر ص115.

12 –PEIN .T.H : op.cit. P 383.

أحياءً على الفرار جنوباً تاركين وراءهم كل ممتلكاتهم و مواشيهم التي سيطرت عليها قوات الاحتلال حيث كانت الغنائم كبيرة[13] . و في الليلة التالية للهجوم هاجم بعض فرسان أولاد طعبة مخيم بان الذي خيم قرب أحواض الغدير في الجهة الشمالية من الجبل و دخلوا في اشتباك مع القوات الفرنسية و تمكنوا من استرجاع بعض مواشيهم و توجهوا بها جنوباً و الظاهر أن خسائر قبيلة أولاد طعبة في هذه الحملة كانت كبيرة رغم أن الكتابات الفرنسية لم تحدد عدد شهدائها، بل أكثر من ذلك حسرت الخسائر الفرنسية في مقتل ضابط واحد و جرح بعض الجنود[14] و هو أمر مستبعد على اعتبار أن مقاومي أولاد طعبة يتفوقون على العدو في معرفتهم الجيدة للمنطقة و خاصة مسالك جبل كربيط الوعرة الذي كان مسرحاً لهذه الوقائع و الأحداث. لم يتطرق الكلونيل بان في رسائله الحميمية و هو شاهد عيان على الأحداث بل و من صانعيها أيضاً إلى خسائر قبيلة أولاد طعبة وهذا له تفسيران:

إما أنّ حملة تيودور بان لم تتمكن من الظفر و لو بواحد من مقاومي أولاد طعبة و هذا مستحيل ،وإما أن الخسائر كانت جسيمة تمثل بحق وحشية الاستعمار وهمجيته فعمل بان على إخفائها حتى لا تؤثر على سمعة فرنسا الحضارية و هو الاحتمال الأقرب لأنه من غير المعقول أن تتعرض منطقة مأهولة بالسكان للقصف المركز بالمدفعية و بالأسلحة المتطورة في ذلك العصر دون أن يكون هناك ضحايا ،لكن الشهادات الشفهية التي يرويها الآباء عن الأجداد للأبناء و الأحفاد تذهب إلى عكس ذلك حيث تذكر هذه الشهادات أن بطناً واحداً من أولاد طعبة فقد في هذه الانتفاضة أكثر من 80 شهيداً في معركة كربيط لوحدها و يمكن تصور الخسائر البشرية التي لحقت بهذه القبيلة المحاصرة و المقصوفة بالمدفعية طوال يوم كامل و ما تلاه من الأيام.

و بعد فترة هدوء قصيرة تميزت بها المنطقة استغلها أولاد طعبة في إعادة ترتيب شؤونهم و زيادة استعداداتهم للمرحلة القادمة من المواجهة ،تجددت المقاومة في بداية سنة 1853 و دخل أولاد طعبة في صراع مسلح مع قوات الاحتلال في ضواحي جبل كربيط ، بوادي جدي، مسعد و غيرها من المناطق التي كانت تنتشر عليها هذه القبيلة.

و قد أظهر مقاومو هذه القبيلة استماتة كبيرة في مقاومة قوات الاحتلال رغم حملات الإبادة التي كانت تتعرض لها بعد كل تمرد، و هذا ما تؤكده برقية الضابط أقرو Agrou

13-PEIN .T.H : op.cit. P 384 .

14 - PEIN .T.H : op.cit. P. 382.

المؤرخة في 04 مارس 1854 والتي تصف واحدة من تلك الاشتباكات و المعارك التي خاضها مقاتلي هذه القبيلة صد قوات الاستعمار على مدار أكثر من سنتين حيث يذكر أقرو: «... لقد تلقينا مقاومة عنيفة من بعض الفرسان الذين أحاطوا بنا، وكنا نجهل تضاريس المنطقة فباغتنا العدو في الليلة الأولى و تراجعت قواتنا ،إن هذه القبيلة الموجودة على مشارف الصحراء بالقرب من موقع مسعد ألحقت بقواتنا خسائر رغم أننا أبدنا محاربيها في الأسابيع الماضية، لقد كانت تختبئ بين الأشجار و في الأودية، كان مرشدنا معنا الذي يقتفي آثار قبيلة أولاد طعبة أينما حلت، و ممن أسرنا محمد بن الويرق، الطاهر بن شليقم و سعد بن محمد...»[15]

و من التقرير يمكن استنتاج ما يلي :

1- أنّ هذه الانتفاضة خلفت الكثير من الشهداء في أولاد طعبة و العديد من القتلى في صفوف العدو.

2- عمل ضباط قوات الاحتلال على إخفاء عدد الشهداء من المقاومين و عدد القتلى من القوات الاستعمارية.

3- أنّ انتفاضة أولاد طعبة كانت مستمرة من أكتوبر 1852 إلى سنة 1854 حتى ولو تخللتها بعض فترات الهدوء ربما بهدف إعادة تنظيم الصفوف .

4- أنّ قوات الاحتلال عملت و في كل مرة على تجريد هذه القبيلة من ممتلكاتها و مصادرة ما تمتلك من مواشي لإفقارها و إرغامها على الاستسلام.

5- أنّ أبناء المنطقة استعانوا في انتفاضتهم بمعرفتهم الجيدة لتضاريس المنطقة (سلاح آخر).

6- أنّ قوات الاحتلال كانت و بعد كل مواجهة مع أولاد طعبة تقوم باعتقال كل من يقع في يدها و الذين غالباً ما يكون مصيرهم الإعدام.

15 – أعمال جمعية البحث التاريخي و التراث بالجلفة، تاريخ الجلفة عبر العصور، الجلفة، 2012 ،ص 17 .

و رغم القمع و القتل و التنكيل و الاضطهاد و المصادرة فإنّ المقاومة بالمنطقة لم تنته ،حيث أنّه لم تنته انتفاضة أولاد طعبة حتى اندلعت انتفاضة جيرانهم و إخوانهم أولاد أم لخوة*.

2 – انتفاضة أولاد أم لخوة* (أكتوبر 1854):

و بالرغم من نجاح القوات الفرنسية في تثبيت الاحتلال في الجهات الوسطى و مشارف الصحراء حيث تمكنت من احتلال بسكرة، بوسعادة و الأغواط، إلا أنّ المقاومة كانت لا تزال مستمرة. ففي سنة 1854 كان الوضع في الجهة الجنوبية من منطقة أولاد نايل مضطرباً فانتفاضة قبيلة أولاد طعبة كانت لا تزال قائمة، و كان جواسيس المكتب العربي بالجلفة يرصدون قبائل هذه المنطقة و يعلمون بالدور الفعال الذي يقوم به " رسل الشريف بن عبد الله السريون الذين كانوا يجوبون هذه القبائل دون توقف لحثهم على المشاركة في الجهاد"[16].

و كانت عيون كولونا ضابط المكتب العربي بالجلفة ترصد هذه التحركات و تركز على أولاد أم لخوة الذين ألقي القبض على 50 رجل منهم.

فعملت سلطات الاحتلال على تطبيق إستراتيجية تهدف إلى تثبيت هذه القبائل و تركيزها في مناطق معينة للحد من تنقلها وبالتالي تسهيل مراقبتها و التحكم فيها و الحد من خطورتها في حال التمرد أو الثورة. و في إطار هذه الإستراتيجية " سمح القائد العسكري بالأغواط دوباراي DuBarail لقبائل أولاد نايل بالتنقل بخيمها إلى مناطق المراعي الخصبة شمال وادي جدي و حتى حدود مسعد لتثبيتها حتى تسهل مراقبتها و خاصة أولاد عيسى و أولاد أم لخوة الذين يبقى " ولاءهم لفرنسا مشكوك فيه دائماً" [17] و لفرض الرقابة المستمرة على هذه القبائل طلب دوباراي من ضابط بيرو عرب بالجلفة كولونا دورنانو

* تعتبر من اكبر قبائل أولاد نايل، تتركز في الجهات الجنوبية، انظر، أكاردو. ف: المصدر السابق، ص،229.

16 - ARNAUD: R.A: V 06 N° 34, p: 260.

17 Mangin E.:op.cit. P 75.

D'ORNANO التوجه جنوباً إلى مسعد على رأس قافلة تتكون من 400 جندي من القوم و المخزن و الجنود الفرنسيين إضافة إلى 20 من حملة الرشاشات من الأهالي [18].

و كانت القافلة تضم العديد من الضباط منهم الضابط لورو LEROUX نائب رئيس المكتب العربي بالجلفة و الملازم دوفوليران DEGOULLERAND المكلف بقيادة المشاة، و الدكتور (الطبيب) ريبو Reboud الذي كان قد أُستدعي للجلفة لمتابعة الحالة الصحية لأحد الضباط المرضى بمركز الجلفة، بالإضافة إلى الماريشال دوبوا دوجيبار الذي التحق بالقافلة من بعد.

و تمت تهيئة القافلة حيث أعدت الأحصنة ، والجمال كانت تحمل الأكل و الشعير و الماء في القرب و المؤونة العسكرية و حتى الأسلحة (10 جمال مخصصة لحمل الرشاشات).

انطلق الطابور من الجلفة في 10 أكتوبر و مر عبر صبع مقران* و تم التخييم ليلتها في المجبارة ، و في اليوم التالي وصلت القافلة إلى عين الناقة التي تبعد عن منطقة الويصال بحوالي 02 كلم .

وهذه المنطقة هي مركز تجمع بعض خيم قبيلة أم لخوة و هي أكبر قبائل المنطقة الجنوبية لأولاد نايل عدداً حيث تجاوز عدد أفرادها في سبعينات القرن التاسع عشر 3979 نسمة[19] رغم أنّ هذا الرقم مشكوك في صحته على اعتبار أن هذه القبيلة وعلى غرار القبائل البدوية تتميز بالتنقل و الترحال المستمر وبالتالي لا يمكن إحصاء عدد أفرادها بدقة.

و تنقسم هذه القبيلة إلى تسعة بطون (فرق) هي: " أولاد لكحل، أولاد سيدي سعد، أولاد بن جدو، أولاد بو خلّط، الشنان أولاد ناصر، أولاد قويسم، أولاد سيدي ناجي، الكواكي" [20] يضاف إليها أيضاً أولاد جاب الله و أولاد العويسي (العويسات).

---

18 – ARNAUD: op.cit P 260.

* صبع مقران: جبل مرتفع يقع بين الجلفة و المجبارة يبعد عن الجلفة 15كم جنوبا.

19 -أكاردو ف.: المصدر السابق، ص 229.

20– ARNAUD: op.cit. P 258.

و منـــاطق انتشـــار هـــذه القبيلـــة شاســـعة جـــداً حيـــث يمتـــد تواجـــدها مـــن جبـــل الســـحاري في الشـــمال إلى مســـعد في الغـــرب وصـــولاً إلى تقـــرت و بســـكرة في الجنـــوب و حـــدود بوســـعادة و عـــي الريش بوكحيل في الشرق.

في أكتـــوبر 1854 كانـــت بعـــض بطـــون هـــذه القبيلـــة موجـــودة بمنطقـــة الويصـــال غـــرب المجبـــارة و عـــين الناقـــة ، و بمجـــرد وصـــول القـــوات الفرنســـية إلى عـــين الناقـــة بـــدأ مقـــاتلو هـــذه القبيلـــة يستعدون للمعركة بقيادة بن هاشم الذي يرجح أنه من أولاد سيدي سعد.

في 11 أكتـــوبر وصـــل الطـــابور الفرنســـي إلى عـــين الناقـــة و خـــيّم هنـــاك بـــالقرب مـــن عـــين المـــاء، و وضـــعت الحراســـة في كـــل جهـــة كمـــا كانـــت هنـــاك نقـــاط متقدمـــة للمراقبـــة علـــى المرتفعـــات[21] ،و كانـــت الفـــرق المكلفـــة بحمايـــة القافلـــة تتمثـــل في القـــوم المشـــكلين مـــن أبنـــاء القبائـــل المحلية و منهم أولاد سعد بن سالم الذين يعرفون المنطقة جيداً.

و الظـــاهر أن المارشـــال دوجيلبـــار لاحـــظ الحركـــة غـــير العاديـــة لـــبعض فرســـان قبيلـــة أولاد أم لخـــوة ممـــا جعلـــه ينبـــه كولونـــا لـــذلك بهـــدف أخـــذ الحيطـــة و الحـــذر لكـــن أفـــراد القافلـــة كـــانوا يضـــنون أنهـــم أفـــراد مـــن قبيلـــة أم لخـــوة بقيـــادة بـــن هاشـــم جـــاءوا متـــأخرين لمشـــاركة القافلـــة احتفالهـــا و فرحتهـــا، لأن جنـــود المخـــيم كـــانوا يحتفلـــون، و في حالـــة فرحـــة بعـــد أن وصـــلتهم معلومـــة كاذبـــة بـــأن فرنسا قد سيطرت على سيباستوبول " Sébatopole " .

في صـــبيحة يـــوم 12 أكتـــوبر تم رفـــع المخـــيم العســـكري و قبـــل مواصـــلة المســـير باتجـــاه مســـعد تعرضـــت القافلـــة لهجـــوم خـــاطف مفـــاجئ مـــن طـــرف مقـــاتلي أم لخـــوة الـــذين دخلـــوا في اشـــتباك مـــع جنـــود الاحـــتلال و تمكنـــوا مـــن قتـــل الماريشـــال دوبـــوا دوجيلبـــار DeBois Du Gelbert بـــل و نكّلـــوا بجثتـــه و نزعـــوا ملابســـه بـــالقرب مـــن العـــين (عـــين الناقـــة) و ســـرعان مـــا انســـحبوا. و لمجـــرد سمـــاع كولونـــا الخـــبر طلـــب الجنـــود، المخـــزن و الرشاشـــات و القـــوم مـــن أولاد ســـعد بـــن ســـالم (100 فـــارس) و تـــرك حراســـة القافلـــة للقبائـــل الـــتي لا يشـــك في ولائهـــا مثـــل أولاد عيســـى, أولاد

21 –Mangin E.: op.cit. P 75.

ضياء و أولاد سي أحمد [22] و أعاد أم لخوة الكرّة بعد مدة و تواصل القتال ثم انسحبوا من جديد بعد استعمال جيش كولونا للأسلحة المتطورة.

و قد خلّفت هذه المعركة 12 قتيلاً و الكثير من الجرحى و من بين القتلى الماريشال ديبوا دوجيلبار، أما خسار أم لخوة فهي غير معروفة لكنها قد تكون كبيرة. و الظاهر أنّ قوة أولاد سعد بن سالم الذين يعرفون تضاريس المنطقة جيداً و خباياها قد سهلوا فرار أم لخوة نحو جبل بوكحيل ذو التضاريس الوعرة و هذا طبيعي، فأولاد سعد بن سالم كانوا منذ أشهر قليلة فقط لا يزالون يقاومون قوات الاحتلال في جبل كربيط القريب من الويصال و مسعد و بوكحيل.

بعد أن أعاد كولونا تنظيم قواته اتجه إلى مسعد أين دفن قتلاه بما فيهم دوجيلبار و كان يضن أنّ قبيلة أم لخوة ستتجه جنوباً للحاق بمحمد بن عبد الله فقرر أن يقطع عليها الطريق لكنه اكتشف أن أم لخوة اتجهوا نحو بوكحيل و بالتحديد الجبل الأحمر و أرسلوا له يطلبون الأمان، لكن كولونا كان يخشى أنها مناورة " و فعلاً أرادت القبيلة أن تموهه بطلب العفو" [23].

و حاولت قوات كولونا دورنانو اللحاق بأولاد أم لخوة في الكاف لحمر ببوكحيل الذي يتميز بصعوبة تضاريسه و دخلت قواته في اشتباكات مع مقاتلي بن هاشم و في نفس الوقت بدأت فرنسا في تحريك قواتها. ففي الجلفة قام الجنرال قاستو Gastu بتكوين طابور من قوات الاحتياط. و من بوسعادة تنقل الضابط PEIN على رأس طابور يتكون من 130 من المشاة و بعض الفرسان من القوم و التحق بدورنانو في مسعد [24]. أما فليبر قائد بيرو عرب ببوسعادة فكان يتبع أثر قبيلة أم لخوة [25].

و في 14 أكتوبر غادر القائد دوباراي الأغواط على رأس طابور عسكري على الجمال يتكون من ثلاث كتائب مدفعية من المشاة واحدة من الفيلق الثامن للمشاة الخفيفة لإفريقيا، الثانية من القناصة و كتيبة ثالثة للمشاة.

22- Mangin E.: op.cit. P 75.

23- ARNAUD: op.cit. p 256.

24 -Mangin E.: op.cit. P 76.

25 - ARNAUD: op.cit. p 262.

كل هذه الطوابير و القوات تم تسخيرها للقضاء على انتفاضة أم لخوة و هي في بدايتها حتى لا يتكرر ما سبق و أن حدث مع أولاد طعبة الذين استمرت مقاومتهم لأكثر من سنتين و كي لا يلتحقوا بالشريف بن عبد الله الذي كانت الكثير من قبائل المنطقة متأثرة بدعوته للجهاد.

في17 أكتوبر و على الواحدة صباحاً غادر طابور دوباراي حاسي زيان* . و على الساعة الحادية عشر التحق طابور دوباراي بطابور بان PEIN ،و في هذه الأثناء التحق النقيب كاريس Carrus بقوم دورنانو بعقلة الأطرش[26] بضواحي وادي جدي أين ارتاحوا لبضع ساعات ثم توجهوا نحو سهل تنجرت** مكان تواجد أولاد أم لخوة ، و للوصول إلى هذا السهل هناك طريقان:

واحدة من جهة وادي الحلتق و هي التي سلكها الفيلق الإفريقي بقيادة بان PEIN .

و الثانية تبعها القائد دوباراي عن طريق وادي بزرقين

والظاهر أن طوابير بان PEIN و دوباراي تسللت في هذه الأودية حتى لا تثير انتباه أولاد أم لخوة حتى لا يكون لديهم الوقت الكافي لتنظيم أنفسهم أو الفرار من جهة ، و من جهة أخرى كي لا تستغل هذه الأودية التي تتميز بالوعورة في بعض أجزائها من طرف مقاتلي هذه القبيلة.

و كان طابور دوباراي الذي يسلك طريق وادي بن زرقين أول من وصل إلى منطقة مخيم أم لخوة.

26 –Mangin E.: op.cit. P 76.

* حاسي زيان يوجد شرق مسعد جنوب بوكحيل .

** سهل تنجرت (ضاية): منطقة مكشوفة تقع جنوب شرق وادي جدي حوالي 65 لكم عن مسعد.

وكان مقاومي هذه القبلية مستعدين للمعركة والمقاومة[27] و رغم قلة عدد جنودها أراد دوباراي مفاجأة أم لخوة وأمر بالهجوم عليهم في هذه المنطقة المكشوفة حتى لا يترك لهم فرصة الفرار إلى الجبال و المناطق الوعرة مما يصعّب في مهمة جنود الاحتلال في القضاء على تمرد هذه القبيلة ، و سرعان ما التحقت بقية الطوابير بالمعركة رغم المقاومة المستميتة من قبل أم لخوة إلا أن تفوق قوات الاحتلال من حيث التسليح خاصة و التنظيم، إضافة إلى طبيعة المنطقة المكشوفة.

كل هذه العوامل قلبت الكفة لصالح قوات الاحتلال التي أنهت المعركة لصالحها مما أجبر أفراد هذه القبيلة على الفرار إلى المناطق الوعرة والجبال ،وفي الأخير بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة في الأرواح بسبب القصف بالمدفعية الذي تعرضت له القبيلة إضافة إلى فقدانهم لمواشيهم التي صادرها جنود الاحتلال بعد المعركة " حيث جمع الفرسان الغنائم و وجدوا ملابس دوجيلبار" [28].

كما كان الحال في انتفاضة أولاد طعبة السابقة لم تذكر المصادر الفرنسية خسائر العدو في هذه المعركة، كما لم تتطرق إلى خسائر قبيلة أم لخوة إلا إشارة ، حيث تذهب بعض الكتابات إلى أن " خسائر أم لخوة كانت كبيرة" [29] و ضخامة الخسائر تعود إلى عدة عوامل منها الأسلحة الفتاكة التي أُستعملت في المعركة و في مقدمتها سلاح المدفعية و الرشاشات من جهة، و من جانب آخر طبيعة المنطقة المكشوفة التي كانت مسرحاً للمعركة، فهي عبارة عن سهل صغير أو ما يعرف محليًّا باسم "الضاية".

و الظاهر أن معركة تنجرت هذه و انتفاضة أم لخوة عموماً التي قادها بن هاشم و الذي يرجح أنه من أولاد سيدي سعد قد شاركت فيها معظم بطون هذه القبيلة* و يتجلى ذلك من خلال أسماء بعض شهداء هذه المعركة التي لا تزال تتداولها الرويات الشفوية .

27 – ARNAUD: op.cit. p:p 262-263.

28 – ARNAUD: op.cit. p: 263.

29- Du Barail : Du BARAIL. Mes souvenirs T2. Plon-Nourrit et Cie, Paris 1898 :p.p 135-140

.

* تذهب معظم الرويات الشفوية المتداولة الى أن جل بطون ام لخوة شاركت في هذه المقاومة، فالقائد بن هاشم يرجح انه من أولاد سيدي سعد، و الشهداء الحطاب

و بانتهاء معركة تنجرت أو حاسي لفطح كما تذكر بعض الكتابات، انتهت انتفاضة قبيلة أولاد أم لخوة، لكن المقاومة لم تنته لأن الكثير من مقاومي هذه القبيلة ممن تمكنوا من النجاة بعد هذه المعركة التحقوا بالتلي بلكحل وبالشريف بن عبد الله في الجنوب.

خاتمة :

من خلال النماذج السابقة يظهر بجلاء أن قبائل منطقة الجلفة و على غرار قبائل كل جهات الوطن كان لها دور فعال في المقاومات و الانتفاضات الشعبية المسلحة تعبيراً عن رفضها للاستعمار الأجنبي و لتمسكها بهويتها خاصة ما تعلق منها بالدين، حيث كان الوازع الديني دافعاً أساسياً لدى هذه القبائل في تصديها للاحتلال تحت لواء الجهاد.

و عموماً يمكن القول أن كتابة تاريخ مساهمة قبائل المناطق الوسطى و مشارف الصحراء لا يزال في بداياته و لم يأخذ نصيبه من الدراسة الأكاديمية حتى الآن و هو ما يفتح الباب أمام الباحثين من طلبة و أساتذة للكتابة في هذا المجال في المستقبل.

مصادر البحث :

1- Mangin E.: Note sur l'histoire de Laghouat. (Ed. Adholph Jordan, libraire; éditeur, Alger 1895).

2- Général Du BARAIL. Mes souvenirs T1,2et3. Plon-Nourrit et C^{ie}, Paris 1897,1898 .

3- M.Th. PEIN. Lettres familières sur l'Algérie, un petit royaume arabe.

بلخيرات الذي ينحدر من بطن أولاد بوخلط ،والقعمز بوزيدي من أولاد ناصر ،و الجامد النارة من الشنان (أولاد الشنة).

4- Revue africaine, (V:06, N°34 et V:17, N°101), OPU, Alger 1980.

5-François De VILLARET : Siècles de steppes, édidtion Centre de documentation saharienne, Ghardaïa 1995.

6- معجم قبائل و دواوير الجزائر، ف، أكاردو، ترجمة حمزة الأمين يحياوي و مالك بن خيرة، عالم المعرفة و النشر و التوزيع ط خ 2013 (وزارة الثقافة).